جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم التربية الفنية

الخط العربي/ المرحلة الأولى

نشأة الخط العربي وتطوره

أ . م . د عامر سالم عبيد / مدرس المادة

نشأة الكتابة وتطورها:

عُثِر في بلاد وادي الرافدين على كتابات أشبه برموز الموسيقى، وارتفع مستوى هذه الكتابة إلى أشكال على الطين بقصبة قاسية أُطلِقَ عليها اسم (الكتابة المسمارية) التي كتب بها السومريون أولاَ، ثم الأكديون والعموريون والكنعانيون .

أما الكنعانيون وهم قدماء العرب على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وهم شعب عملي فلقد تبنوا منذ العصور الأولى الأبجدية التي نراها في أوغاريت(وهي مدينة قرب اللاذقية) إذ كان من المألوف هناك استعمال الكتابة المسمارية التي كانت منتشرة في بلاد وادي الرافدين والتي استمرت وسيلة الأكديين والعموريين العرب القدماء ثم سكان أوغاريت من الكنعانيين، وكان لابد من استعمال هذه الكتابة بسبب الطريقة التي كان لابد من استعلها عند الكتابة على ألواح الطين بقصبة خاصة، ولكن المهم في أوغاريت إنهم قد استعملوا الكتابة المسمارية على الرقم الفخارية، فكانت الحروف الأبجدية الأوغاريتية وعددها (٣٠ حرفاً) هي أول أبجدية في العالم .

كانت أوغاريت قد ابتكرت الأبجدية منذ عام (١٥٠٠ ق.م) وهي أبجدية كاملة مؤلفة من (٣٠ حرفاً) تكاد تنطبق على الأحرف الأبجدية المعاصرة، وإن شكل هذه الحروف يقترب من شكل الحرف اللين العربي، مبتعداً عن الأشكال المسمارية القاسية .

ففي عام (١٩٤٨ م) عُثِرَ في مدينة أوغاريت (رأس الشمرة) على رقيِّم صغير الحجم يحوي عدداً من الصيغ المسمارية وعددها (٣٠ شكلاً) تبيَّن بعد الدراسة والتدقيق إن هذه الأشكال المسمارية ما هي إلاَّ حروف أبجدية لم يُعرف لها نظير، بل تأكد للباحثين إن هذه الأبجدية هي الأولى في العالم وإنها ترجع إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد .

كما عُثِرَ في جبيل عام (١٩٢٢م) على أبجدية منقوشة على ضريح الملك أحيرام وترجع إلى عام (١٣٠٠ ق.م) يمتاز برسوم جميلة تُمثِّل أحيرام ملك جبيل وأمامه رتل من الباكيات والعابدات، وبعضهن يُمزقن ثيابهن علامة الحزن، وترجع أهمية هذا الرقيِّم والتي اشتهر بها إلى النص المكتوب عليه بأحرف أبجدية ما زالت لحد الآن الشكل الأول للحروف الأبجدية العربية واللاتينية .

وتبدو أهمية هذه الأبجدية بعد العثور على النص الكتابي على تابوت أحيرام في جبيل التي تعتبر الأبجدية فيه تطويراً لأبجدية أوغاريت المسمارية نظراً لكتابتها اللينة، والواقع أن ثمة كتابتين كانتا متداولتين في جبيل خلال الألف الثانية قبل الميلاد، الأولى تبدو على رقيم محفوظ في متحف بيروت وعلى نقوش أخرى لم يتم حل رموزها بعد، والكتابة الثانية هي كتابة أحيرام الأبجدية فهي على ما يبدو تأخذ أصولها من الاشارات المتداولة على الساحل السوري والتي عُثِرَ عليها منقوشة على بعض الأشياء الأثرية، كما أن نقش أحيرام يقدم لنا نصاً كاملاً مقروءاً ومفهوماً بوضوح، ذلك أن كل حرفٍ فيه يعتمد بصيغته وشكله على دلالته المادية، وتسميات الحروف باللغات الكنعانية أو الفينيقية هي ذاتها تسميات الحروف العربية وذلك لوحدة اللغتين .

وقد انتقلت هذه الأبجدية إلى الكتابة الآرامية والنبطية ومن ثم إلى العربية الأولى ثم العربية الحديثة .

وقد عُثِرَ على نقد برونزي إغريقي يحمل في أحد وجهيه صورة (قدموس) وهو أهل طيبة (شمال أثينا) الأحرف الأبجدية الفينيقية، وهذا النقد محفوظ حالياً في المكتبة الوطنية في باريس، ويذكر هيرودوت(هيرودوت : مؤرخ يوناني أرَّخ أهم الأحداث والوقائع اليونانية عاش في القرن الخامس ق.م) إن الفينيقيين نقلوا إلى اليونان مع تجارتهم كتاباتهم، في الوقت الذي كان اليونانيون أحوج ما يكونوا إلى تعلم كتابة لتسجيل تاريخهم، وبعد أن تبنى الرومان هذه الكتابة انتشرت هذه الأبجدية في جميع الكتابات الغربية .

وهكذا انتقلت الحروف الفينيقية إلى بلاد اليونان لكي تكون أساساً واضحاً للحروف اليونانية ثم اللاتينية، ثم تحولت هي ذاتها منتقلة عِبرَ الآرامية والنبطية لكي تصبح الكتابة العربية الحديثة، ومع أن الفرق واسع اليوم بين الكتابة العربية والكتابة اللاتينية فإن إلقاء نظرة مقارنة على تطور الخط الفينيقي تبين الدليل على أن العرب هم اللذين علَّموا الغرب كتابتهم الأولى .

يقول الباحث(جورج بيرو) : " إن ابتكار الأبجدية كان حدثاً هامَّاً جداً لا يمكن مقارنته بأي حدثٍ آخر في تاريخ الجنس البشري، وهو أعظم من ابتكار الطباعة، إذ أن تحليل الكلام وإرجاعه إلى عناصره الأولية يحتاج إلى عملٍ فكريٍ عظيم ".

مراحل تطور الخط العربي

إن نشأة وأصل الخط العربي مشكلة كانت مستعصية تتأرجح حولها الآراء ولا تكاد تستقر على رأي معين، فقد تعددت الآراء في كيفية نشوء الكتابة العربية والروايات المختلفة وكذلك آراء المستشرقين والمحدثين وأعمال التنقيبات والبحث لها الفضل في البحث والاستقصاء لتثبيت الجذور التاريخية لأصل الكتابة العربية، إلا أنها تبقى غير كافية لعدة أسباب منها قلة عدد النصوص التي عُثِرَ عليها مما جعل المرء يحتاط في الحكم والتعميم وكذلك تباعد فتراتها الزمنية، فكل ما توصل إليه هو أربعة نقوش بالخط العربي والتي ترجع إلى العصر السابق للإسلام، الأول نقش(زيد) وقد سُمي بهذا الاسم نسبة إلى الموقع الذي عُثِرَ فيه جنوب شرق حلب، والنق ش مؤرخ من سنة (٥١٢م) وقد كُتِبَ هذا النقش بثلاث لغات هي (اليونانية والسريانية والعربية) ، أما النقش الثاني والمعروف بنقش(أسيس) نسبة إلى جبل يقع جنوب شرق دمشق، ويضم هذا النقش نصاً عربياً مؤلفاً من أربعة أسطر ويعود إلى سنة (٤٢٣م)، والنقش الثالث هو نقش(حران) وهو منقوش على حجرة كانت تعلو باب الكنيسة وهو باللغتين اليونانية والعربية ويرجع تاريخه إلى سنة ٥٦٨م، أما النقش الأخير والمعروف بـ(أم الجمال) والذي عُثِرَ عليه في كنيسة تُدعى الكنيسة المزدوجةDouble Church ويُنسب تاريخه إلى القرن السادس الميلادي إذ أن هذا النقش غير مؤرخ ويتألف من خمسة أسطر ، وهناك من لم يعتمد على دلائل مادية وأثرية، وإنما كان يعتمد روايات مختلفة متناقلة تقوم مرة على أسس دينية، ومرة على أسس شبه أسطورية، وتبقى الروايات التي رأت اشتقاق الكتابة العربية من كتابات أقدم منها ، أو أنها متطورة عنها، وكذلك آراء المستشرقين الذين اعتبروا أصل الكتابة العربية متطورة عن الكتابة النبطية أو من الكتابة الآرامية ، وقد اعتُمِدَت نظرية الأصل النبطي للكتابة العربية في أغلب المراجع الحديثة التي صدرت عن أصل الكتابة العربية .

الخط العربي في صدر الإسلام :

جعل الإسلام فدية من يكتب من أسرى قريش في موقعة بدر لمن لا يستطيع أن يفدي نفسه بالمال، تعليم الكتابة لعشرة من المسلمين، وهذا يدل على أن الخط كان معروفاً .

كما تشير الرسائل التي بعث بها الرسول الأعظم محمد (ص) إلى ملوك الأرض يدعوهم فيها إلى الإسلام إلى أن الرسول (ص) قد اختار لكتابتها أجود الكُتَّاب خطاً، وذُكِرَ أن النبي (ص)

كان له عدداً من الكتبة من الصحابة الكرام مثل : عمر بن الخطاب، والإمام علي ابن أبي طالب (ع) الذي كان من المجوِّدين للخط، وعثمان بن عفان، وأبان بن سعيد، وزيد بن ثابت، والعلاء الحضرمي .

وتوسع انتشار الخط بعد تأسيس الكوفة، فقد طور أهل الكوفة أسلوب كتابة الحرف وشكله حتى أصبح هذا الخط متميزاً بأهل الكوفة عن غيره من الخطوط، كخط أهل الحجاز .

وكان لكتابة المصحف الشريف أثر كبير في تطور الخط العربي وتجويده وانتشاره خارج الجزيرة العربية، وقد ترافق هذا الانتشار مع انتشار الدين الإسلامي عن طريق الفتوحات، إذ حمل الإسلام الخط واللغة إلى البلاد المفتوحة، وظلَّت مراكز تجويد الخط العربي ترفد هذا الفن الجديد في مكة والمدينة والبصرة والكوفة، واشتهر الخط الكوفي من بين سائر الخطوط الأخرى ببلوغه شأناً رفيعاً من الإتقان والجودة والانتظام .

الخط العربي في العصر الأموي :

عندما كانت الكوفة مقراً للخلافة أيام الإمام علي بن أبي طالب (ع) كانت مركزاً من مراكز التجديد والابتكار في الكتابة العربية، وبانتقال مركز الخلافة من الكوفة إلى الشام تحوَّل الاهتمام بالخط إلى هناك لاشتغال كثير من الناس بالكتابة وتدوين الأثر ونسخ المصاحف، وعُدَّ رجل من ذلك الزمن اسمه (قطبة) رائداً من رواد الخط، وقيل أن على يديه تحوَّل الخط الكوفي إلى شكل أكثر مرونة مما كان عليه، وينسب إليه ابتكار خط (الطومار) وكذلك (القلم الجليل) والذي يُعرف الآن بخط الجلي، أي الواضح .

وساعد النتاج الثقافي للعصر على ذيوع الخط لكثرة التأليف والحرص على إخراج الكتاب بشكل لائق وجميل، حتى أن بعض المصاحف وكُتب الحديث والسيرة كانت تُزخرف وتُزوق وتُطلى بماء الذهب .

وقد اشتهر الحسن البصري (وُلد بالمدينة سنة ٢١هجرية وتُوفي بالبصرة سنة ١١٠هجرية) بكتابة المصحف الشريف وعُرف بتجويد الخط من قبل أن يكون للخط شأن يُذكر، وقد أخذ الخط عن الإمام علي بن أبي طالب (ع) . وهكذا أخذ الخط يشق طريقه في الارتقاء والتطور ليصل إلى درجة النُضج في العصر العباسي .

الخط العربي في العصر العباسي :

بعد تأسيس بغداد على يد أبي جعفر المنصور واتخاذها عاصمة للدولة العباسية ازداد الاهتمام بالعلم والترجمة وتوسعت دائرة الثقافة العربية، وصاحَبَ ذلك تطور كبير في حقل الكتابة والخط، فظهرت كوكبة من الخطاطين لا تزال آثارهم باقية، وكان الخط في هذا العصر قد استوعب من صور الابداع ما استوعب، فأترع الخط بالزخرفة، وأثري بالتلوين والتزويق والتذهيب .

وقد اشتهر خطاط ان عُرِفا بجودة خطيهما وهما (الضحاك بن عجلان) و (اسحاق بن حماد) وكان هذان الكاتبان يخطَّان (الجليل) وعل أيديهما تنوعت الخطوط وتفرَّعت، فكان هناك (قلم الجليل، وقلم السجلات، وقلم الديباج، وقلم الثلثين، وقلم الطومار الكبير، وقلم العهود) وبرز أيضاً الخطاط (ابراهيم الشجري) الذي طوَّر قلم الجليل إلى قلم الثلثين، ومن قلم الثلثين إلى قلم الثلث .

ثم تناهت براعة الخط على يد الوزير (ابن مقلة) ثم (ابن البواب) ثم (ياقوت المستعصمي) وكان هؤلاء الثلاثة أبرع من جوَّد الخط، وقد جعلوا العصر العباسي عصر ازدهار للإبداع العربي في مجال الكتابة والخط .